

كيفية اللغة في الفكر الغربي

دكتور / محمد علي الكردى

كينونة اللغة في الفكر الغربي

د. محمد علي الكردي

ينسب نودوروف ، أحد مشاهير النقاد الفرنسيين المعاصرين، إلى أن "الأدبية"، أي الخصوصية الأدبية للخطاب، بدأ مع تضخم ما يُسميه "حرفية" اللغة وانحسار وظيفتها المألوفة كأداة للتخاطب والاتصال ويقصد نودوروف بالحرفية الإهتمام باللغة من حيث هي لغة، أي الإهتمام بطرائق تركيبها وأساليبها التعبيرية، وبالصور البيانية المختلفة التي تتميز بها وتنمو وتطور عن طريقها لا كقوالب مفروضة على المادة الأدبية وإنما كجزء أساسي تقوم عليه هذه المادة. ولقد عني بتطوير هذا المفهوم واستغلاله في ممارساتهم الأدبية رواد الزاوية الجديدة في فرنسا، وعلي رأسهم كلود سيمون وآلان روب - جريه وروجيه بنجيه وجان ريكاردو وغيرهم. ومن المعروف أن جزءا كبيرا من روايات هذه "المدرسة" يقوم على ميكانيزمات توليد سواء على المستوى الصوتي، وما يتيح هذا المستوي من إنتاج التماثلات الصوتية، على شاكلة السجع والجناس، والتلاعب بها (لقد تبين أن هناك علاقة بين بعض هذه الكتابات ونظريات اللعب، أو على مستوى تداعي المدلولات والمعاني باستغلال ميكانيزمات الاستعارة والكناهة هذا بالإضافة إلى ضروب عديدة من "الموضوعات الكتابية" التي تستمد من مواد أو مجالات فنية مختلفة كالسينما والرسم والتصوير والطباعة والإعلان، الأمر الذي يوفو للكاتب مخزونا كاملا من فنون العرض وأساليب الإخراج اللازمة له لأداء "حرفته" أو صداسته على أكمل وجه.

إلا أن الإهتمام باللغة من هذا المنظور الصناعي البحث، أي لمادة خام لها حضورها القوي وكثافتها الخاصة بها، لا يمكن أن يمثل، في نظرنا، مجرد اختيار

يرتبط بزاج الكاتب، أو بشكل مجرد صدفة لا يمكن تبريرها أو تعليلها. في الواقع، إن مفهوم اللغة الذي يتبلور هنا - ولا أريد أن أطرف إلى دور موسير في إبراز هذا المفهوم - قد يرتبط بمفهوم آخر بالغ الأهمية في مجال الممارسات الأدبية، وهو مفهوم "الكتابة" (l'écriture) كما يلمزه وصقله "رولان بارت" في دراسته المشهورة "الدرجة الصفر في الكتابة" (١). وهكذا نستطيع بفضل "بارت" أن نعرف أن الكتابة هي ضرب من الاستخدام اللغوي، الذي بشكل مستوي خاص لا يطابق من جهة، مفهوم اللغة عند "موسير" كنسق رمزي جماعي سابق علي الكلام، ولا يصل، من جهة أخرى، إلى مستوى الأسلوب كخاصية شبه مزاجية تعبر عن الطبيعة الجمعية للكاتب، وعن فرديته المطلقة في تعامله مع عناصر اللغة من ثم، يمكن القول بأن الكتابة هي ما ينطبق علي مجموعة من التكوينات اللغوية التي تتميز كل منها بتركيبها الخاصة، والتي لا يمكن فصلها، كما يذهب بارت، عن رؤية الكاتب لممارسته لعملية الكتابة. إن هذه التكوينات اللغوية التي تمثل مجموعة من الأدوات والممارسات والظرائق التعبيرية، غالبا ما تنشأ في ظروف تاريخية محددة، إلا أن هذا لا يمنع من تعميم بعض مقوماتها، أو من تشكيل بعض مكوناتها في صورة أنماط كتابية عامة مثل النمط الكلاسيكي أو الرومانسي أو الرمزي أو الواقعي، نظرا لما غشله هذه الأنماط من استعادات واتجاهات أساسية في تركيبه النفس البشرية.

إلا أن هذا الاهتمام بتحديد خصوصية اللغة وإبراز ميكانزماتها من خلال مستوى الإنجاز الأدبي غالبا ما كان يعبر عن رأي بعض الكتاب والنقاد الذين يرون في تغيير منظورهم للغة جزءا لا يتجزأ من عملية التحدد الشامل الذي يسمون إلي تحقيقه، إذ أنه ليس من المعقول، في نظريهم، تحويل الرؤي التقليدية في الرواية أو الشعر أو المسرح من غير تحويل اللغة لحاملة أو المشكلة لهذه الرؤي، لأن الكاتب يتعامل، في نهاية الأمر، مع اللغة ومع آليات الكتابة

التي تعد الرؤى تتاجا لها أكثر مما تكون هذه الأخيرة مضامين تعبر عنها اللغة كما ينهـب الفكر التقليدي السابق علي إنجازات "سوسير" (Saussure). غير أن هذا لا يفسر لنا، إذا استبعدنا آراء الكتاب واهتماماتهم، كيف انبثق هذا المفهوم "الغريب" الذي يضفي علي اللغة "كينونة" خاصة بها، كينونة أعمق وأكثف من وظيفة الاتصال المنوطة بها، كينونة فرضت وجودها كقوة خارجية علي الإنسان

وهنا لابد لنا من الرجوع إلي تفسيرات "ميشيل فوكو" "الأركيولوجية" لتبيين الظروف الموضوعية التي أدت إلي ظهور هذا المفهوم الثوري الذي يعبر عن تحولات عميقة في طبقات الثقافة الفرنسية أو الغربية. ويبدو أنه لكي نفهم هذه الظروف، علينا أن نرجع بخيالنا، بعض الشيء، إلي عصر النهضة، فتي هذا العصر، كما ينهـب الكاتب، تقوم لغة الفكر علي مقولة أساسية هي مقولة "التشابه" التي تعمل كبند تنظيمي عام لجعل الحقول المعرفية. وتناط يهله القاعدة التشابهية العامة وما يتفرع عنها من مفاهيم ملازمة لها مثل "التوافق" و"التنافس" و"التجانس" و"التعاطف"، عملية كشف العلاقات الخفية الكامنة بين الموجودات علي أساس العلاقات والرموز الظاهرة التي يوقرها لنا عالم الطبيعة إلا أنه لا كشف من غير فن خاص للتفسير والتأويل، من ثم يقول لنا الكاتب ،

"إن القرن السادس عشر قد جمع بين علم للعلامات (سميولوجيا)

وبين فن للتأويل (هرمينوطيقا) في صورة من التماثل والتشابه،

بحيث أصبح البحث عن المعني هو لقاء الضوء علي التشابهات،

والبحث عن قانون العلامات هو اكتشاف الأشياء القابلة للتشابه،

ومن ثم يكون فن التأويل هو نحو الموجودات والكائنات." (٢)

إلا أن هله الأرضية المعرفية التي تشكلها اللغة في القرن السادس عشر

سوف تحول، بطريقة جذرية، إبان العصر الكلاسيكي، بحيث يتغير "كيان" اللغة من طبيعته الثلاثية، التي تعتمد على اتصال "دال (صورة العلامات) بمندلول" (مضمون هذه العلامات) عبر "ظروف مرادية (التشابه الذي يمكن اكتشافه بين الأشياء والعلامات) إلى تركيبة ثنائية لاتعدي ارتباط دال بمندلول ومعنى ذلك، في نظر الكاتب، هو نهاية التطابق القائم بين اللغة والعالم، وتحريم العلامات من ارتباطها بالطبيعة الناشئة ومن الشبهة حتى يمكن للغة أن تصبح مجرد نسق (اعتباطي) من العلامات يقوم على نظام عام للتمثيل. (représentation)

لقد تحددت العلامة اللغوية إذن، بعد استخلاصها عن عالم الأشياء والطبيعة خلال القرن السابع عشر، بوظيفتها كحدث معرفي بحت، فهي لم تعد تستمد طابعها الاحتمالي أو اليقيني من الطبيعة، وإنما من مكانتها داخل إطار معرفي. لقد أصبحت تعبر عن "علاقة إبدال ممكنة بين عنصرين"، كما "أن الأشياء قد أصبحت بفضلها متميزة، محافظة على وحدتها وقابلة للتحليل والتركيب"، وهو ما يتيح، كما يذهب فوكو، للفكر الغربي أن يصل إلى مرحلة الحكم والتقويم.^(٣) أضف إلى ذلك أنه إذا كانت العلامة ثيل إلى الاعتبارية، فهذه - من غير شك - اعتبارية وظيفية، إذ أن الذي كان يعني به الكلاسيكيون هو إنشاء لغة تحليلية وتركيبية جينة حتى يتمكنوا من صياغة القوانين المكونة للطبيعة إلا أنه إذا كانت العلامة اللغوية فبتعد عن الطبيعة لتصبح في إطار النسق المعرفي الكلاسيكي مجرد علاقة بين فكرين، فهذا لا يعني قدرتها على التمتع بصفاتها العلامية بطريقة مستقلة، بل على العكس. إن هذه الصفة لاحت لها إلا بفضل قدرتها التمثيلية معني ذلك، أنه لن يكون هناك بين العلامة ومضمونها أي وسيط ولن تقوم أية عتبة أو ظلال وكما كان علم العلامات يلتقي، خلال عصر النهضة، بفن التأويل عبر

مبدأ التشابه، فإن هذا العلم نفسه سوف يلتقي، في العصر الكلاسيكي، بتقنية التفسير السريعة ويفضل سرعة التمثيلية البحتة المناطة به. وليس من شك، في أن غياب أي نوع من الغور بين الدال والمدلول في الفكر الكلاسيكي يشكل سمته المتميزة بالنسبة للفكر الغربي الحديث، وذلك بالقدر الذي سيحتاج فيه هذا الأخير إلى نظرية كاملة للدلالة لتفسير الفجوة القائمة بين الدال والمدلول، والتي يناط بها عمل الشعور ونشاطه. (٤)

إن الوظيفة التمثيلية تصبح، من ثم، دعامة اللغة في العصر الكلاسيكي. وليس من شك، في أن "الفعل" سيقوم فيها بدور بالغ الأهمية، خاصة فعل الكينونة الذي يناط به تجاوز العلامات اللغوية بما تقتله من ضرورة اتفاقية بحتة إلى أساس وجودها الفكري لاغرو، من ثم، أن تكون وظيفة الفعل هي الصيغة التي تتواجد من خلالها اللغة، وهي القدرة على التمثيل بواسطة العلامات والربط بين هذه العلامات. إلا أن هذا لا يجب أن يحجب أهمية "الإسم" الذي يشكل "مادة الجملة رأساً لها القائم بذاته، بل ومحورها الذي دلتف حوله بقية عناصرها من صفات وأدوات ربط ووصل وغير ذلك.

إن الإسم، في الواقع، هو محور النظرية الكلاسيكية للغة من حيث كون "التسمية" هي مبدأ التصنيف العام الذي يعد بجانب النظام الرياضي (mathesis) الخاص بقياس المقادير والأحجام والكميات والامتداد، القاعدة الأساسية لجنوة الكائنات وتصنيفها وفقاً للنظام العقلي العام. ذلك أن الإسم من حيث هو "ملتقى كل وظائف اللغة" والوسيلة التي تصبح ترجمة العملية التمثيلية في صورة جمل وأحكام، بعد ركيزة الخطاب وشرط إمكانية اتصال الخطاب بالمعرفة وإذا كان الخطأ والصواب لا يرتبطان أساساً، كما يقول الكاتب، به وإنما بالحكم، أي بالتصور السليم الواضح لعلاقات النظام الفكري،

فإن الحكم لا يميز إلا بواسطة الوساطة الجملة المرتبطة به. ومن هنا ينشأ التلازم بين الفكر السليم والعمل اللغوي المطابق للمنهج، وبين اللغة التحليلية الدقيقة المنظمة التي لا تحدث فيها إنزلاقات أو هجومات قائمة على التوليفات الخيالية والتجريدات أو التعميمات المتسرعة. (٥)

من دم، أبهاء، في نظر فوكو، هذه "الإسمية" (nominalisme) المنهجية التي تطبع الفكر الفلسفي الغربي منذ "هيز" وحتى تألف فلسفة "الأبديولوجيين" في أوائل القرن التاسع عشر، وهي فلسفة تقوم أساساً على تحليل اللغة والشك في كل ألوان العبارات والمصطلحات التي تقوم على التجرد والتعميم، كما يبرز ذلك عند "بركلي" و"هيوم" و"كوندياك". مع افتراضها، في الوقت نفسه، قدرة اللغة، كأداة بالغة الشفافية والوضوح، على تسمية الأشياء والتعبير عنها بصورة مطابقة في إطار نسق من إشارات المصطنعة. ولكن إذا كان الاسم يمثل، على هذا النحو، غاية الخطاب، حيث أن تسمية الأشياء هي إدراكها، فإنه يمثل - لامتحالة - نهايته في الوقت نفسه. ولعل ذلك يفسر لنا، كما يذهب فوكو، ازدهار "الربطويقا" ووضوحها في الأدب الكلاسيكي. وذلك رغبة في تأجيل لحظة النطق بالاسم، والتمهيد لظهوره المرتقب يحشد من الصور والتشبيهات الخيالية التي لا تنفي تشوفنا إليه وإلى ما بعدنا به من نشوة اللقاء والكشف إن هذا - كما ينو - هو ما يتحقق في عالم "ساد" الأدبي البالغ الحصف، حيث يلتقي الاسم، وهو مادة اللغة وغايتها، بعالم الرغبة لقاءاً بدوياً فيه إلى درجة انغلاق اللغة على نفسها، وانفصالها في كينونة غريبة عن وظيفتها التمثيلية المنوطة بها، وعن كل ما يربطها باستقاطات الواقع والفكر. (٦)

إلا أن قيام هذه "الكينونة" لم يتم بصفه قاطعة، كما يبدو، إلا مع ظهور

علم "الفيلولوجيا" الذي تأثر في تكوينه تأثيرا حاسما بالتصوذج الوظيفي السائد في علم الحياة، ومناطق ذلك أن العملية التمثيلية لم تعد هي التي تشكل بمفردها خصوصية العلامة اللغوية ، أو تحدد مكانتها داخل تركيب الجملة وعلاقتها ببقية العناصر اللغوية، فالكلمة، حتى وإن كان لها دور تصويري أو إخباري لا يرتبط بنظام عقلي أو منطقي للعلامات بقدر ما يرتبط بظروف تاريخية خاصة عملت على تشكيل صورتها، وتحديد الأصوات التي تكونها، وإنشاء القواعد التي تحكم تحولاتها، أو بمعنى آخر، إن ما يستخلصه فوكو من "الفيلولوجيا" هو رفضها لفكرة ربط اللغة بنظام التصورات، وإخضاعها، بدلا من ذلك، لضوابط النظم النحوية والصرفية والصوبية التي تشكل "حاملها" التاريخي، إن صح هذا التعبير، كما تشكل معبرها الأساسي نحو الواقع وصوراته.

إن إدخال مفهوم "التاريخ" إلى مجال اللغات بغرض دراسة التحولات والتغيرات التي تصيب هياكلها ونظمها التركيبية ما كان ليتم، في نظر الكاتب، إلا ملازما لدخول مفهوم التطور في مجال علوم الحياة، وهو ما يفترض ضمنا مقارنة اللغات بالكائنات الحية ذات التنظيمات العضوية والوظائف الحيوية المرتبطة بها. إلا أنه إذا كان من الممكن اعتبار مفهوم التاريخ أو "التاريخية" بمثابة الخلفية الأركيولوجية التي قام عليها كل من علم الحياة وعلوم الفيلولوجيا، فإن هناك فرقا جوهريا يظار، مع ذلك، قائما بين المجالين. ذلك أن تاريخية حياة الكائنات، كما يقول الكاتب، لا تقوم إلا بمساعدة الحياة الخارجية المحيطة بها، بينما تاريخية اللغة هي اكتشاف لماهيتها الداخلية، أي لما يؤسسها كموضوع قابل للدرس والتحليل مثل بقية الموضوعات، وبالتالي من غير اعتبار لما تحمله من تصورات وروزي إنسانية تواترت عبر العصور.

غير أن فوكو يعتقد أن تحويل اللغة إلى موضوع للدراسة والبحث ما كان ليتلاءم كلية مع الطبيعة الخاصة للغة، وهي كونها، بجانب الدور المعرفي الذي تلعبه، أداة اتصال وتعبير عن الإحساس والشعور، وهو الأمر الذي يدفع إلى صياغتها في شكل خطاب، ومن ثم خضوعها، أردنا أم لم نرد، لذات المتعلم أضف إلى ذلك أن إخضاع اللغة للدرس والتحليل قد قابله نوع من النزعة النقدية، وخاصة بعد ربط اللغة، في المنظر الفيلولوجي، بعادات الشعوب وتقاليدها وراثتها الروحي وعقليتها المتشكلة عبر التاريخ، من هنا أصبح ينظر إلى اللغة لا كتأجيل لأزمنة الأقدار، وإنما كأطار قلبي يعمل على تشكيل عقول الشعوب وأخيراً، يعتقد فوكو أن غرض اللغة، عبر الدراسات الفيلولوجية، مع ما يفترضه هذا التوضيح من إبراز خصوصية اللغة وتحديد لكيانها وماهيتها، كان عاملاً حاسماً في الكشف عن الطبيعة الأدبية للاستخدام اللغوي النهائي، وهو الأمر الذي كان معروفاً بالسلفية منذ القدم، بفضل بعض النصوص الفذة التي مازالت تقاوم الزمن. وليس من شك في أن كشف هذا "الكيان اللغوي"، كما يسميه فوكو، سوف يتجلى من خلال عملية الخلق الأدبي، لا من حيث ارتباطه بوظيفة تقليد الواقع أو محاكاة أحداثه، ولا من حيث تقديمه مرآة صادقة لنفسية الفنان أو للظروف التاريخية والاجتماعية التي يعيش فيها، وإنما من حيث اتحاده بعملية الكتابة وقدرتها اللاواعية على تفجير القوي الخاصة بالكلام. وليس من شك في أن ما يقصده فوكو هنا، هو هذا التحول الكبير الذي تشهده اللغة الأدبية بعد تخلصها من منظور المحاكاة والوضوح العقلاني اللذين كانا يهيمنان على الرؤية الكلاسيكية للوجود. إذ أن وظيفة الأدب لم تعد، من الآن فصاعداً، تقوم على مطابقة الخطاب الأدبي للفكر السائد، ومن ثم ترسيخ القيم الفوقية في صورة قواعد عامة صورية تحكم الذوق، وتشكل الرؤية المطلقة للحقيقة والخير والفضيلة. إن الأدب، كما يقول فوكو، سوف يتمركز حول نوع

من "اللغة الازمة" التي لا يعنىها ما تحطمه من أعراف وأحكام مسبقة، ولا ما قد تفجره من طاقات غير متطورة طالما أنها كاملة فيها، وبالتالي في الإنسان، إن هذه اللغة لن تخضع لقواعد التصوير أو التمثيل، إذ أن ههنا الأكبر هو تحقيق ذاتها الخالصة ، وإدراك وجودها كعملية كتابية مستقلة لا غاية لها إلا تأكيد حركتها المولدة لجوهر كل أدب مبدع (٧)

مواضع البحث

Roland Barthes, Le degré zéro de l'écriture. Paris, (١)
Ed. du seuil (points), 1972.

(٢)

Michel Foucault, Les mots et les choses, Paris

Gallimard, 1966, pp. 42-44

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٥

(٤) المرجع نفسه، ص ٨١

(٥) المرجع نفسه، ص ١٣٢

(٦) المرجع نفسه، ص ص ١٣٣ - ١٣٤

(٧) المرجع نفسه، ص ص ٢٩٣ - ٣١٣ .